الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسى عابدين . القاهرة — تليفون رقم ٤٢٩٩٢

العدد الخامس عشر « الثلاثاء ٢١ صفر سنة ١٣٥٨ — ١١ أبريل سنة ١٩٣٩ » السنة الأولى

الفهرس

صفحة			
١	الملك غازى بن فيصل ...	:	للأستاذ عبدالرحمن عزام بك
٣	الدول الصغيرة والكبيرة	:	للدكتور محمد عوض محمد ...
٧	مع أدبياتنا المعاصرات ...	:	« طه حسين بك ...
١٢	ذكرى الأربعين لوفاة الأستاذ الهراوى		لقسم التحرير المختص ...
١٣	امتحان	:	للأستاذ أحمد أمين ...
١٦	أثر المرأة فى أدبائنا المعاصرين	:	« توفيق الحكيم ...
١٩	الجاحظ والسياسة	:	« سعيد الأفغانى ...
٢٣	الجمال	:	« ا . ض ... ...
٢٤	أميرة هندية فى حديقة ...	:	لمحرر « الثقافة » الفنى ...
٢٥	سيد ربيعة : كليب التغلبى	:	للأستاذ محمد فريد أبو حديد
٢٩	بين السياسة والأدب ...	:	« أحمد خاكى ...
٣٣	نوافذ الأدب إلى النفوس	:	« محمد خلف الله ...
٣٦	الأمراض المتوطنة وأثرها فى تطور التاريخ		« الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك ... ...
٤١	أنباء وآراء	:	لقسم التحرير المختص ...
٤٥	من أحسن ما يروى ...	:	للأستاذ أحمد الزين ...
٤٧	أب يناجى طفله	:	« أحمد محمد إبراهيم نار
٤٨	العنكبوت	:	« عبد الحميد الدواخلى

الملك غازى بن فيصل

لسعادة الأستاذ عبد الرحمن عزام بك

وزير مصر المفوض فى العراق والمملكة العربية السعودية

ريع العالم الإسلامى وجزعت الأقطار العربية ، وسرى الأسى والحزن والفزع والهلع لذلك النبأ المفاجئ ، والخطب الفاجع ، لموت الملك الهاشمى ملك العراق ، فى عنفوان شبابه ، وفاتحة عمله لخير أمته .

وإن هذا الجزع الذى تردده أنباء البلاد الإسلامية عامة والبلاد العربية خاصة ، ليعرب عما للعراق من مكانة وما كان للملك الشاب فى القلوب من حب وما كان لها فيه من رجاء .

ذلكم قدَر لم تكن لأحد فيه حيلة ، وقد وقع الخطب وقضى الأمر . وليس هذا الرزء وإن جل بأعظم من أن

يحتمله العراق المجاهد الصابر ، ولا أفدح من أن تثبت له قواه وتستقل به عزائمه وتتسع له حكمته ويدبر له حزمه . فأملنا فى أهل العراق أن يتلقوا الحادث الكارث ، بما عهد فيهم من الثبات فى النوائب والصبر على الكوارث ، وتلقى المصائب بالعقل المفكر والرأى الحازم والعمل الموفق .

قد حزن أهل العراق على ملكهم وشاركهم الحزن المسلمون والعرب وكثير غيرهم ، وسيقضى عليهم حبهم ووفاؤهم أن يطول حزنهم ، ولكن لا ريب أنهم يلقون الخطب الجلل بعدته من الثبات وكفايته من الحزم وجمع الكلمة وحشد الأفكار والعزائم للمضى على الخطة المجيدة التى اختطها فيصل وخلفه عليها الغازى رحمهما الله .

* * *

كان الغازى رحمة الله عليه ملكا محبوبا ، قريباً إلى النفوس متواضعاً يقل التحدث عن عمله .

وكان ملكا دستوريا يحترم القوانين ويحب أن تحترمها الحكومة ، وكان بتربيته العسكرية يحرص على النظام ، ويحب أن يحرص الناس عليه .

وكان فى حياته الخاصة رياضياً محباً للفروسية والصيد ، والرياضة قرينة الدمقراطية والتواضع .

وكان مولعاً بالآلية (الميكانيكا) ، وكان يحرص على أن يكون له عدد من السيارات المختلفة ، وكان له طيارات خاصة ، وفى داره أجهزة للمذياع ، وكان يرى هذا كله بنفسه ، ويعالجه بيده ، ويتخذ من نفسه مهندسا .

وما كان هذا الحادث المشئوم إلا من هذا الولع بالسيارات ، والإسراع بها ، والمخاطرة فيها .

* * *

لئن فقد العراق رجاءه فى الغازى ، فما فقد رجاءه فى نفسه ، ولئن مات ملك العراق العظيم ، فالعراق المجيد حى لا يموت .

جلالة الملك غازى الراحل

فليحزن أهل العراق على ملكهم الطفل ، ويجتمعوا حوله إجلالا للعرش ، ووفاء لفيصل والغازى ، وإجابة للخلق العربى ، وحرصاً على وطنهم ، وسيراً إلى المجد على السبيل التى خطوها لأنفسهم . وسيجدون بعد قليل على عرش العراق فيصلا الثانى ، كما وجدوا من قبل فيصلا الأول والغازى ، ملكا مقداماً محباً لأمته ، تسير وزراءه أمة مصممة على أن تبلغ غايتها من المجد والعظمة .

وإن لنا فى العراق وأهل العراق لرجاء عظيما . حقق الله الرجاء ، ورزقنا فى الملك الفقيد حسن العزاء ، وهيأ للعراق فى حاضره ومستقبله كل خير .

عبد الرحمن عزام

الدول الصغيرة والكبيرة

للدكتور محمد عوض محمد

كما يتفاوت الأفراد قوة وثروة وخطراً ، كذلك تتفاوت الدول ، فمنها الصغيرة والكبيرة . وهذه الظاهرة ركن خطير من أركان السياسة الدولية ، ولهذا فهى جديرة أن نقف لديها برهة ، لكى ننعم النظر فى خصائصها ومغزاها .

لعل ظاهرة التفاوت الكبير بين الدول لم يكن يخلو منها عصر من العصور . ولكن ليس من شك فى أنها اليوم أظهر وأقوى مما كانت عليه فى أى وقت من الأوقات . فإننا إذا رجعنا إلى خريطة أوربا ، فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، لما رأينا هذه الكثرة العظمى من الدويلات ، والوحدات السياسية « المستقلة » . ففى عصر فردريك الثانى ملك بروسيا ، كان معظم أوربا موزعاً بين ست دول أو سبع ، متكافئة فى القوة إلى حد بعيد ، وليس بينها تفاوت يستحق الذكر .

والفضل فى تمزيق أوربا إلى أجزاء متناثرة ، ودويلات مبعثرة على صفحة القارة ، يرجع أكثره إلى فكرة القومية والذهاب فى تمجيدها وتقديسها إلى أبعد مدى ، واتخاذها أساساً للحياة السياسية . فأصبحت الدول وبينها هذا التفاوت العظيم فى مساحة الأرض وعدد السكان ، والقوة المادية والحربية ، والثروة والغنى .

وليس من شأننا أن نتساءل : هل كان هذا المصير أمراً محتوماً ، ليس عنه محيد ؟ أو أن نقول إن إطفاء العاطفة القومية كان أمراً ميسوراً من غير تمزيق الدول ، على نحو ما نراه من وجود القومية الغالية فى داخل بريطانيا ، أو الألمانية فى ألزاس ولورين ، أو البريتونية فى فرنسا ، حيث نرى كلا من هذه القوميات متمتعاً بما يحتاجه من الاستقلال الثقافى فى وطنه الصغير ، وبنصيب وافر من النفوذ السياسى فى الوطن الكبير . نقول ليس من شأننا هنا أن نتساءل عن هذا ، وإنما الذى يهمنا أن ننظر إلى الحالة السياسية الدولية كما هى قائمة ، وأن نفهم الأركان التى تقوم عليها .

ومن أهم هذه الأركان ، بلا شك ، هذا الاختلاف الهائل بين الدول ، وأننا أصبحنا نرى الناس يقسمونها إلى دول صغيرة ، وأخرى كبيرة . أما الدول المتوسطة فقليلة جداً ، وهى فى العادة ملحقة بالدول الصغيرة .

وإذا اتخذنا عدد السكان مقياساً — وهو على العموم مقياس لا بأس به — فإن فى أوربا اليوم خمس دول يزيد سكانها على الأربعين مليوناً ، وهى روسيا ، وألمانيا ، وبريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا[1] ؛ وهنالك نحو عشرين دولة يقل سكان كل منها عن عشرة ملايين . وهنالك أربع دول فى حالة وسط وهى : بولونيا (٣٣ مليوناً) ، وأسبانيا (٢٤ مليوناً) ورومانيا (١٩ مليوناً) ويوجوسلافيا (١٥ مليوناً) . وكانت فى أوربا إلى وقت قريب دولة أخرى من هذا الطراز ، وهى تشيكوسلوفاكيا ، ثم مزقت كما هو معروف . وهذه الدول المتوسطة يلحقها الكتاب بالدول الصغيرة ؛ وعصبة الأمم تعترف بهذا ضمناً ، لأنها لا تمنحها الميزات التى تمنحها للدول الكبرى كما سترى .

فالكثرة العظيمة من الدول الأوربية إذاً هى الوحدات

(١) وفى القارات الأخرى دولتان كبيرتان ، وهما اليابان ، والولايات المتحدة . فيصبح بهما عدد الدول الكبيرة سبعا ، وباقى العالم من الدول الصغيرة .

الصغيرة . والفرق بينها وبين الدول الكبيرة فرق عظيم جداً . ولقد نشأ عن هذه الظاهرة ما يسمى فى الاصطلاح السياسى « مشكلة » . كما كان وجود القوميات المختلفة فى دولة كالنمسا فيما مضى « مشكلة » . وهذه المشكلة قد حلت بمشكلة أخرى لعلها لا تقل عنها تعقيداً وإشكالا .

وقد قام بلب بعض المفكرين الذين سعوا فى إنشاء عصبة الأمم أن يخففوا من أثر هذا التفاوت العظيم بين الدول ، بأن يؤلفوا منها جمعية واحدة تنظم العلاقات الدولية وتقيمها على شىء من الانصاف والعدل ، بحيث يستطيع الضعيف أن يأمن عدوان القوى . وكان المنتظر أن تجتمع الدول فى هذه العصبة على قدم المساواة ، بحيث يكون لكل دولة صوت مسموع فى السياسة الدولية .

وبمقتضى دستور عصبة الأمم نرى حقيقة أن جميع الأعضاء يجتمعون فى شهر سبتمبر من كل عام فيما يسمى بالجمعية العمومية لعصبة الأمم ، واجتماعهم هذا له من غير شك مظهر المساواة بين جميع الدول .

ولكن هذه الجمعية العمومية لا تلعب الدور الأساسى فى أعمال العصبة ، وإنما القوة الحقيقية فى العصبة لمجلس العصبة الذى يجتمع عدة مرار فى السنة ، والذى يبت فى المسائل الخطيرة . وأعضاؤه يمثلون بضع عشرة دولة فقط ، للدول الكبرى فيه كراسى دائمة [1] ، بينما الدول الصغيرة والمتوسطة تتناوب العضوية فيه من آن لآخر . بناء على انتخاب الجمعية العمومية .

وهكذا نرى حتى عصبة الأمم تعترف صراحة بهذا التفاوت بين الدول ، بحيث يكون للدول الكبرى نفوذ دائم فى تصريف شئون العصبة . وقد ذهب كثير من المدافعين عن العصبة إلى أن المساواة التامة بين الدول لو اتخذت مبدأ لدستور العصبة ، لكان فى هذا ما يعجل بالقضاء عليها .

وفى وسعنا أن ننظر إلى دستور عصبة الأمم بأنه — على علاته — وسيلة لحل مشكلة الدول الصغيرة ، لو أن العصبة اكتسبت قوة على مدى الزمن ، تستطيع بها أن تمنع عدوان القوى على الضعيف . غير أن العصبة قد ازدادت ضعفا على مر السنين بدلاً من أن تزداد قوة . والفضل فى هذا يرجع من غير شك إلى الدول الكبيرة التى لم تستطع أن تكبح جماح رغباتها ، وأبت إلا أن تسلك فى معاملتها الشعوب الضعيفة سياسة لا تتفق بحال من الأحوال مع مبادئ العصبة التى هم « أكبر » أعضائها .

ويجمل بنا هنا أن نكون منصفين ، وأن نقرر صراحة أن الدول الكبيرة فى هذا الجرم سواء . فعصبة الأمم لم تستطع أن تحاسب بريطانيا على ما تعمله فى فلسطين ، ولا فرنسا على ما اقترفته فى سوريا . ولا ما ارتكبه اتحاد أفريقيا الجنوبية فى مستعمرة جنوب أفريقية الغربى . وهذه كلها أقطار تحت الانتداب خاضعة لرقابة عصبة الأمم .

وللعصبة الحق فى مؤاخذة الدول صاحبة الانتداب على ما ترتكبه فيها من مخالفات صارخة لشروط الانتداب . وقد استطاعت بريطانيا أن تبذل جهداً موفقا فى ألا تثار المسألة المصرية فى عصبة الأمم ، برغم الأزمات المتعددة بين الدولتين ما بين عام ١٩٢٤ و ١٩٣٠ . وإذا كانت إيطاليا وألمانيا واليابان أكثر جرأة فى مجابهة العصبة والخروج عليها ، فإننا لا نستطيع أن نبرئ الدول الكبرى الأخرى . فإليها جميعا يرجع الفضل الأكبر فى أن وصلت العصبة إلى ما هى عليه اليوم من الضعف والعجز .

وهكذا ترى أن دستور العصبة كوسيلة لحل مشكلة الدول الصغيرة لم يأت بفائدة تذكر .

لننظر الآن إلى الوسائل الأخرى التى تتذرع بها الدول

(١) يتمتع الآن بالعضوية الدائمة فى مجلس العصبة الدول الآتية: بريطانيا ، فرنسا ، روسيا . وكذلك كان لليابان وإيطاليا وألمانيا كراسى دائمة فى المجلس قبل أن يتركوا عصبة الأمم .

الصغيرة لكى تحافظ على كيانها ووجودها . وهى وسائل قد التجأت إليها الدويلات مكرهة فى الغالب لا مختارة .

فمن هذه الوسائل الاحتماء بدولة قوية بطريقة تذكرنا بقول المتنبى :

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده
تصيده الضرغام فيما تصيَّدا .

وهذا الاحتماء على مراتب ودرجات . وفى أحط هذه المراتب يكون استقلال الدول الصغرى استقلالا اسمياً ، ويكون للدولة الكبرى الكلمة العليا فى كثير من الشئون الداخلية والخارجية ، بحيث لا تتمتع الدولة الصغرى من الاستقلال إلا بمقدار ما تسمح به الكبرى . وربما كان أوضح مثال لهذا ألبانيا وعلاقتها بإيطاليا . فبالرغم مما تتمتع به الأولى من « الاستقلال » وبالعضوية فى عصبة الأمم ، فان النفوذ الايطالى أكبر عامل فى سياستها الداخلية والخارجية (١) وكذلك كان شأن النمسا يوم أن كانت تحميها إيطاليا ، إلى أن تخلَّت عنها لألمانيا . ومثل هذا يقال اليوم عن دولة سلوفاكيا الجديدة ، ودولة المجر ، رغم توسعها الحديث ، والنفوذ الألمانى فى كل منهما .

وهنالك وسيلة أخرى تلجأ إليها الدول الصغيرة ، دون أن تضحى بشطر كبير من استقلالها ، وهى عقد محالفة مع بعض الدول الكبرى ، التى لها مصلحة واضحة فى صيانة تلك الدولة الصغيرة من كل عدوان أجنبى . والدولة الكبيرة فى مثل هذه الحال قد تبذل بعض تضحيات أو تنفق أموالا من أجل صيانة حليفتها الصغيرة . وخير مثال لهذا حرص فرنسا على استقلال الدول المحيطة بألمانيا مثل بلجيكا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا . وفى العادة يكون بين هذه الدول محالفات مكتوبة . ولكن هذا ليس بالأمر الضرورى . فقد فضلت بلجيكا مثلا أن تقف موقف الحياد ، وألا تتقيد بمحالفات ، غير أن موقعها الجغرافى وحده هو خير محالفة تضمن لها ألا يعتدى عليها دون أن تتقدم فرنسا وبريطانيا لنصرتها .

ولقد خيل لبولنيا وقتاً ما أنها فى غنى عن محالفة فرنسا . ولهذا ظلت زمناً تؤثر الحيدة التامة ، إلى أن اضطرت أخيراً أمام العدوان الألمانى الذى يتهددها ، أن تعود إلى سياستها القديمة فتقبل أن تضمن استقلالها بعض الدول الكبرى .

وقد خرجت انكلترة من عزلتها « المجيدة » ، مع أنها لم تكن مرتبطة مع بولنده بمعاهدة أو حلف . وأعلن رئيس حكومتها مرتين فى أسبوع واحد أن كلا من انكلترة وفرنسا سيبادر إلى نصرة بولنيا ورومانيا إذا اعتُدى على واحدة منهما . وليس من شك فى أن الجو السياسى قد ساده شىء كثير من الصفاء بعد هذا البيان الصريح الحازم ، الذى كان العالم ينتظره بذاهب الصبر ؛ والذى لا عيب فيه سوى أنه لم يصدر منذ تسعة أشهر . وقد رد عليه الهر هتلر ببيان فيه تراجع واضح عن سياسة التوسع التى كانت ألمانيا ماضية فى اتباعها . وأعلن الزعيم الألمانى بأن دولته لا ترمى إلى فتح أو غزو جديد .

وهنالك وسيلة ثالثة تتذرع بها الدول الصغيرة لحماية استقلالها وكيانها . ولعلها أنبل الوسائل وأشرفها ، ولكنها هى الوسيلة التى مُنِيت بالفشل ولم تصادف نجاحاً إلى اليوم . وهذه الوسيلة قوامها تحالف الدول الصغيرة فيما بينها واتفاقها جميعاً على رفع العدوان الذى يقع على واحدة منها . ومن هذا القبيل اتفاق دول الحلف الصغير : رومانيا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، والحلف البلقانى . ويمكننا أن نضيف إلى هذين الحلفين التفاهم غير المكتوب

(١) فى وقت كتابة هذا المقال تلهج الصحف بأن إيطاليا تريد أن تحول الحماية المقنعة على ألبانيا ، إلى حماية صريحة أو تملك صريح . وقد كذبت إيطاليا هذه الأنباء . وهى إن صحت فإنها تدل إما على أن إيطاليا مدفوعة برغبة التملك حتى فى الحالة التى لن تفيد منها فائدة تستحق الذكر ، أو أن ألبانيا قد أخذت تتمرد . ولو أن هذا الاحتمال الأخير ليس بالأمر الراجح .

بين دول اسكندناوة : السويد والنرويج والدانمركه وفنلنده ، التى تمتاز بثقافتها العالية ، وبمنعة جغرافية طبيعية ، تساعدها على الاحتفاظ باستقلالها .

ولقد جاء على العالم وقت كان يظن فيه أن الحلف الصغير على جانب عظيم من القوة ، خصوصاً أن بولونيا كانت تعطف عليه ، وفرنسا تؤيده . وبرغم هذا كله قد مزّقت تشيكوسلوفا كيا دون أن تتحرك لنصرتها دولة أو يناصرها أحد . وليس السبب الوحيد فى هذا أن فرنسا قد خذلت حليفتها ، بل لأن كلا من الدول الصغيرة كانت أكثر حرصاً على مصالحها الصغيرة ، خائفة على كيانها الصغير ، وكان عطفها على خليفتها عطفاً لفظياً أفلاطونياً ، لا يرد شراً ولا يدفع عدواناً .

ولم توجد بعد ظروف ترينا هل يكون الحلف البلقانى أكثر قوة وأشد مراساً من الحلف الصغير ، وليس هنالك ما يبعث على الظن بأنه سيكون أقوى منه . والحقيقة التى لا بد لنا من التسليم بها أن الدول الصغيرة كانت دائماً صغيرة فى تصرفاتها وفى أعمالها . فهى تشكو الظلم ، ثم لا تلبث أن تقترف الظلم فى أول فرصة تسنح ، وتشكو العدوان ، وهى لا تعف عن العدوان متى أمكنتها الظروف . ففى سبتمبر الماضى حينما استولت ألمانيا على بلاد السوديت بادرت المجر بالاستيلاء على جزء من الغنيمة ، واستولت بولونيا على إقليم تِشِنْ . وفى الشهر الماضى بعد أن مُزقت تشيكوسلوفا كيا ، بادرت هنجاريا إلى الاستيلاء على روتنيا الكرباتية ، مع أن سكانها ليسوا من المجر . ثم لم يقف عدوانها عند هذا الحد ، بل تجاوزته إلى التوغل فى أرض سلوفا كيا والاستيلاء على شطر منها .

وهكذا أثبتت الدول الصغيرة أنها ليست أكثر رعاية للآداب الدولية ، ولحرمة الجوار من الدول الكبرى ، التى تخشى عدوانها . وقد ظهر جشع الدول الصغيرة بوضوح بعد الحرب العالمية ، حينما سعت كل منها فى الاستيلاء على أقطار تسكنها جماعات من شعوب مختلفة عنها كل الاختلاف . ثم أخذت تمعن فى الإساءة إلى هذه « الأقليات » بضروب من الإرهاق والاضطهاد . مع أن قوة هذه الدول فى تماسك أجزائها ، وتعاون جميع العناصر التى تتألف منها ؛ والكثير منها يشتمل على جماعات يختلف بعضها عن بعض اختلافاً يسيراً ، كما كانت الحال فى تشيكوسلوفا كيا ، وكما هى الحال اليوم فى يوجوسلافيا . وبدلاً من أن نرى هذه الدول متماسكة الأجزاء متضافرة القوى ، نراها متخاذلة متنافرة .

فمشكلة الدول الصغيرة ليست راجعة إلى أنها « صغيرة » فحسب ؛ بل لأنها ، إلى صغرها ، ضعيفة التماسك فى داخليتها ، عاجزة عن التعاون الجدى مع دول أخرى صغيرة لدرء ما قد يقع على إحداها من عدوان . على أن مثل هذا التعاون هو الوسيلة الوحيدة الناجعة التى تستطيع أن تضمن بها السلامة والسلم . فان حماية الدول الكبرى ليست بالشىء المضمون ، وهى قلما تكون بلا ثمن باهظ . وقد رأينا الدول الكبرى تتخلى عن تشيكوسلوفا كيا فى الخريف الماضى . ولو أن دول التحالف الصغير اتحدت لدفع العدوان ، وانضمت إليها بولونيا لتألفت منها جميعاً قوة تمثل أربعة وثمانين مليوناً من الناس ، وأقطار تفوق ألمانيا غنى وثروة . ولو أن هذا حدث لما استطاعت انكلترة وفرنسا التخلف عن نصرة هذه الدول التى بادرت إلى نصرة نفسها بنفسها .

وقد طالعنا بعد الفراغ من كتابة ما تقدم نبأ بأن تركيا تسعى فى إيجاد تعاون وثيق بين دول البلقان ، يمكنها من مقاومة أى دولة كائنة ما كانت ؛ وأنها تريد أن تمهد لهذا بحمل رومانيا على إعادة إقليم دبروجا إلى بلغاريا . وهذا الأمر إن تم فانه يغدو أكبر ضمان لسلامة هذه الدول . وهو أجلّ وأعظم من أية وعود يقطعها تشمبرلين أو غيره من الأقطاب الأربعة الذين سمعنا خطبهم فى الأيام الأخيرة .

محمد عوض محمد

مع أدبائنا المعاصرات :

حـــــريم

للسيدة قوت القلوب الدمرداشية

للدكتور طه حسين بك

أطلت التردد قبل أن أفتح هذا الباب من أبواب النقد الذى أبدؤه اليوم لسبب يسير جداً فيما أظن ، وهو أن هذا النقد سيتجه إلى السيدات والآنسات ؛ كما يتجه النقد فى الفصول الأخرى ، التى أكتبها إلى كهول الأدباء وشبابهم . وقد تعودت أن أتحدث إلى الأدباء فى لهجة مهما تكن رقيقة رفيقة ، فإنها لا تخلو من بعض الشدة والعنف أحياناً ، حتى أصبح النقد الحازم الصارم عادة لى لا أستطيع الانحراف عنها مهما تكن الأسباب والمواطن . وقد عرف الناس منى ذلك فأقروه وعرفوه ، ولم ينكروا إلحاحى فيه وإصرارى عليه ، وإنما أنكروا ما قد أصطنعه أحياناً من التلطف والرفق حين يدعو النقد إلى التلطف والرفق ، وحين لا يدعو الأمر إلى الشدة والعنف . والقراء لم ينسوا بعدُ أن كاتباً أديباً لامنى منذ حين فى أنى نقدت الأستاذ العقاد فلم أعنف به ولم أقس عليه . ويقال إن كثيراً من القراء ذهبوا مذهب هذا الكاتب الأديب ، فاستضعفوا نقدى لرجعة أبى العلاء ، وذهبوا فى ذلك مذاهب مختلفة من التأويل والتعليل . وليس لذلك مضدر إلا أن القراء عرفوا منى العنف فى النقد والحزم فى التقريظ والاعراض عن المصانعة واللين .

وواضح جداً أنى حين أقدم على نقد الكاتبات الأديبات ، مضطر إلى أن أصطنع من الرفق والتلطف أكثر جداً مما أصطنعه حين أقدم على نقد الأدباء ، لا لأنى أستضعف الأديبات ، وأراهُن خليقات بالرفق والتلطف لضعفهن ، فقد برئن من هذا الضعف ونفينه عن أنفسهن منذ وقت طويل ؛ وقد برأناهن نحن من هذا الضعف ، ورأينا فيهن لنا أمثالا وأنداداً ، وأخذنا أنفسنا بأن نسير معهن سيرتنا مع أنفسنا ، إكباراً لهن واعترافاً بحقهن فى هذه المساواة التى يحرصن عليها ، ولا نبخل نحن بها لأنا نراها حقاً مقرراً لا معنى للمناقشة فيه . ولكن للصلات الأدبية بين السيدات والآنسات وبيننا أصولا وقواعد ترتفع عن هذا النحو من التفكير ، وتسمو على هذا اللون من ألوان التقدير ، ولا تقوم على الضعف والقوة ولا على القدرة والعجز ، وإنما تقوم على ما يجب علينا لهن من الرعاية والعناية وحسن التأنى لما نريد أن نسوق إليهن — أستغفر الله — بل لما نريد أن نرفع إليهن من حديث . وأنا رجل قليل الحيلة ضعيف الوسيلة فى التلطف والتظرف ، لا أحسنهما ولا أبلغ منهما بعض ما أريد ، تعودت القسوة على الكتّاب حين أنقدهم ، وتعودت القسوة على الطلاب حين أعلّمهم ، واستقر فى نفسى أن التظرف قد يكون خيراً فى كثير من المواطن ، وأن الرفق قد يكون واجباً فى كثير من الظروف ، ولكنهما لا يلائمان النقد ، ولا يلائمان تقويم الشباب

وتثقيفهم حين يقولون فيشطون ، أو يكتبون فيقصرون . وقد كان من اليسير أن أريح نفسى من هذا العناء ، وأحط عنها هذا الثقل ، وأمضى فى نقد الأدباء على ما تعودوا من شدة وعنف ، وأدع نقد الأديبات للذين يحسنون الحديث إليهن والحديث عنهن . ولـكن فى هذا ظلماً لا يطاق ومجاوزاً للقصد لا يقبل من مثلى . فالأديبات ينتجن ، وينتجن آثاراً ليست أقل استحقاقاً للنقد من هذه الآثار التى ينتجها الأدباء ، وماينبغى أن نهمل إنتاجهن ، وما ينبغى أن نسوء الأدب بالاعراض عن آثارهن القيمة مهما يكن اشفاقنا من الجور عن قصد السبيل ، فيما نتحدث به إليهن أو فيما نتحدث به عنهن . وما دمن قد أخضعن أنفسهن لقوانين الإنتاج الأدبى ، فأقبلن على الإنشاء ، ثم لم يكتفين به ، بل أقبلن على الإذاعة والنشر ، ثم لم يكتفين بذلك كله ، بل أردن أن يسمعن أحكامنا على ما ينتجن وآراءنا فيما يذعن وينشرن ، فقد يخيل إلى أننا فى حل من أن نتحدث إليهن وعنهن فى الأدب ، كما نتحدث إلى الرجال وعن الرجال فى الأدب أيضاً . ومن يدرى ؟ لعلهن أن يكن أرحب صدراً وأحسن احتمالا لشدة النقد وعنفه من الرجال . وأكبر الظن أنهن لن يكن أضيق من الرجال صدراً بالنقد ، وأشد منهم ازوراراً عما قد يشيع فيه من شدة وعنف أحياناً . ومن المحقق أن بين الأديب الخليق بهذه الصفة ، وبين السيدات والآنسات شركة لا يمكن أن تنكر ولا أن تجحد ، فى قوة الشعور ودقة الحس ، ورقة المزاج ، وشدة التأثر بما يكتب وما يقال . وما أشك فى أن هذا الأديب القوى أو ذاك يتأثر بما يكتب عنه أو يكتب له تأثر السيدة أو الآنسة بما يقال عنها أو يساق إليها من الحديث . فلنتشجع إذن ، ولنقدم على نقد السيدات والآنسات فى شىء مع ذلك من التحفظ والاحتياط والرعاية لمزاجهن ، الذى مهما يقو ويشتد ، فهو مترف مرهف يحتاج إلى شىء من الرعاية الخاصة فيما نوجه إليه من حديث .

وفى مصر كاتبات أديبات ينتجن آثاراً قيمة خصبة لعلها أن تبلغ من الإجادة والاتقان أكثر مما تبلغ آثار الأدباء ، ولعلها أن تظفر من الرقة والدقة ولطف المدخل بما لا تظفر به آثار الأدباء . ولعلها أن تحقق من المثل الأدبية العليا ما لا تحققه آثار الأدباء كذلك ، ولـكن لها عيباً خطيراً يؤلم ويلذ ، ويحزن ويسر ، وهو أنها لا تـكتب بلغتنا العربية ، ولا تبلغ نفوسنا المصرية ، إلا من طريق ملتوية غير مباشرة كما يقال ، وإنما تكتب بلغة أجنبية لا يحسنها منا إلا الأقلون عدداً . تـكتب باللغة الفرنسية فيقرؤها الفرنسيون ويرضون عنها ، وقد يعجبون بها ويثنون عليها ، كهذا الـكتاب الذى أريد أن أتحدث عنه اليوم . فقد كتبته السيدة قوت القلوب الدمرداشية باللغة الفرنسية ، ونشرته فى باريس ، ووصل إلى مصر من باريس ، ولم يصل إلى باريس من مصر . ماذا أقول ؟ بل وصل الثناء عليه إلى مصر من باريس وعرفناه من المقدمة التى قدم بها بين يديه الـكاتب الفرنسى المعروف پول موران .

ثم أخذ الأدباء الفرنسيون يقرظونه هنا وهناك ، فكتب عنه فى مصر أستاذان من أساتذة الجامعة ، وأثنى عليه فى باريس غير كاتب من الـكتاب المعروفين . ولم يقرأه مع ذلك من المصريين ، ولا ينتظر أن يقرأه منهم إلا الذين يحسنون اللغة الفرنسية ويذوقونها ، ويجيدون الوصول إلى أسرارها ودقائقها ، وهم فيما أعلم قليلون . وما أرى أن المصريين سيقرءون هذا الـكتاب وأمثاله من الـكتب التى سأتحدث إليهم عنها إلا إذا ترجمت لهم إلى اللغة العربية . فاعجب من كتاب مصرى تنشئه كاتبة مصرية وتنشئه فى موضوع مصرى خالص ، يمس حياة المصريين فى أدق جهاتها وأعمقها ، وأشدها اتصالا بنفوسهم ، ثم لا يعرف المصريون عنه شيئاً ، إلا من طريق ما يكتبه عنه الأجانب

أو من طريق النقل والترجمة ، إن أتيح لهذا الكتاب أن ينقل أو يترجم .

ومن الحق أن نسجل أن هذه الظاهرة المؤلمة ليست مقصورة على السيدات والآنسات ، ولكنها تتجاوزهن إلى الرجال ، فى مصر كهول وشباب ينتجون آثاراً أدبية رائعة ، ولكنهم ينتجونها فى اللغة الفرنسية ويمتعون بها القراء الفرنسيين وأشباههم من المثقفين ، ويصرفونها طائعين أو كارهين عن مواطنيهم من المصريين . ولا بد من أن أتحدث يوماً ما عن هذه الآثار المصرية الفرنسية الرائعة ، ليقدر المصريون هذه الظاهرة الخطيرة التى تسر وتحزن وتلذ وتؤلم كما قلت آنفاً . تسر لأن فيها إذاعة للدعوة المصرية وتعريفاً بمصر والمصريين ، ولأن من الخير أن يقدّر الكتاب والشعراء المصريون خارج مصر فى البيئات الأدبية العليا . وتحزن لأن من الحق أن يستمتع بها المصريون قبل أن يستمتع بها الأجانب ، ولأن من الحق أن تستأثر اللغة العربية بما ينتج أبناؤها ، وأن تعرفه اللغات الأجنبية بالنقل والترجمة عن اللغة العربية . لا أن يعرفه المصريون وتظفر به اللغة العربية من طريق النقل والترجمة .

ومما لا شك فيه أن هذه الظاهرة خليقة بالتفكير . فما الذى أنتجها ، وما الذى دعا إليها ؟ وكيف وجد مصريون يبلغون من الإجادة الفنية هذا الحظ العظيم ، وينتجون فى لغة أجنبية ، تعرفهم أوربا وتجهلهم مصر ، يستمتع بآثارهم الأوربيون ، ويحرم هذا الاستمتاع مواطنوهم من المصريين . وجه هذا السؤال إن شئت إلى الأسر التى علمت أبناءها فى المدارس الأجنبية ، وإلى الدولة التى لم تفرض على هذه المدارس تعليم اللغة العربية لتلاميذها المصريين . ماذا أقول ؟ بل إلى الدولة التى لم تعن بمدارسها حتى صرفت عنها الأسر أبناءها ، والتى لم تعن بتعليم اللغة العربية فى مدارسها ؛ حتى أعرض أبناء مصر عن الإنتاج فى اللغة العربية إلى الإنتاج فى اللغة الفرنسية أو الانجليزية .

ومهما يكن من شىء فإنى أريد أن أحدثك فى هذا الفصل عن كتاب أنشأته السيدة قوت القلوب الدمرداشية باللغة الفرنسية ، فظفر بإعجاب قرائه ، وظفر بإعجاب كثير من النقاد ، وكان خليقاً أن يظفر بإعجاب القراء المصريين والنقاد المصريين . ومما يحزن ويسر أن هذا الكتاب ليس أول كتب السيدة ولا آخرها . فقد نشرت قبله كتاباً آخر باللغة الفرنسية ، وإذا صح ما انتهى إلىّ من الأنباء فهى آخذة فى نشر كتاب ثالث باللغة الفرنسية أيضاً .

والكتاب الذى أعنى به الآن واضح من عنوانه فهو يصف الحياة المصرية الخاصة داخل البيوت والقصور فى أخص ما يحرص المصريون عليه من أمورهم وأدق مايضنون به من خاصة نفوسهم . وقد كتب الأجانب كثيراً عن الحياة المنزلية المصرية ، وقد صور الأجانب كثيراً عاداتنا الشعبية ، فأحسنوا وأساءوا ، وصدقوا وكذبوا ، ووفقوا وأخطأهم التوفيق . ولكن السيدة قوت القلوب مصرية تشهد لقومها أو تشهد عليهم لا أدرى ، هى تصور حياتهم كما رأتها ، وتصورها تصويراً دقيقاً صادقاً مطابقاً للواقع من أمرها ، لا تنحرف فيه عن الحق ، ولا تحيد فيه عن الأشياء التى لا سبيل إلى إنكارها ، ولعلنا إن أخذناها بشىء أن نأخذها بالإسراف فى الصدق والغلو فى الدقة ، إن كان من الممكن أن يكون فى الصدق إسراف وفى الدقة غلو .

وما رأيك فى كتاب يعطى أدق صورة وأصدقها لحياة كثير من الأسر المصرية فى جدها وهزلها ، وفى العظيم من أمرها واليسير . يصورها حين تنشأ ، ويصورها حين تنمو ، ويصورها حين تلم بها الخطوب ، ويصورها حين يلم بها الفساد الذى يأتيها من الطلاق أو من الموت ؟ فالخطبة مصورة أصدق تصوير وأروعه ، وحفلة الزواج

مصورة أصدق تصوير وأروعه ، ويوم الزفاف ومقدم المولود وحفلة الأسبوع ، والحياة اليومية فى أيام الأعياد وفى أيام الحزن والأسى ، والخلاف الزوجى الذى ينتهى إلى الطلاق ، وما يعقبه الطلاق من البؤس والحزن ، وهذه اللوعة التى تصيب الأسر حين يختطف من بينها زعيمها وحاميها ، وكل هذا لا يصور من بعيد وإنما يصور من قريب جداً ، ولا تنظر إليه الكاتبة من عَلٍ ، وإنما تعيش بين الناس ، وتصور ما ترى وما تحس ، وتسجل ما تسمع وما تفهم ، وتؤدى هذا فى دقة تضحك أحياناً ، وتخجل أحياناً أخرى . وتدفعنا أحياناً إلى أن نتساءل : أمن الخير أن يعرف الأجانب عنا هذه الهنات وأن يظهروا من دخائلنا على هذه الأسرار ؟ والشىء الذى لا شك فيه أن طلاب الفولكلور سيقدرون للسيدة قوت القلوب كتابها ، وسيشكرون لها جهدها . فقد أهدت إليهم وثيقة خصبة لن يقصروا فى استغلالها ، والانتفاع بها فيما يكتبون من أبحاث . فقد صورت لهم خرافاتنا وسخافاتنا فى دقة لامزيد عليها . لم تهمل العناية بالورد والياسمين والبصل والثوم فى شم النسيم ، ولم تهمل سحر السحرة ، وشعوذة المشعوذين وما يكون لها من أثر خطير فى العلاقات الزوجية فى بعض الأسر . ماذا أقول ؟ بل هى لم تهمل ولادة المولود ، وما يحيط بها من السخف ، وما يحيط بها من الخوف ، ومايحيط بها من الهذيان . فهذه أم الفتاة التى يتعسر عليها الوضع ، تلح فى أن يكون الوضع فى هذه الغرفة لا فى تلك ، لتستطيع أن تدس إلى ابنتها الحلوى وأطايب الطعام . وهذه أم الزوج تريد أن يكون الوضع فى هذه الغرفة لا فى تلك ، لأن فى هـذه الغرفة بركة ، ولأن لها أسراراً . وهؤلاء النسوة يشرن على الزوج الفتى ، حين يتعسر الوضع ، بأن يلبس ثوبه مقلوباً ، ويطوف به فى الدار ليسوء الجنيات اللاتى قد يحببنه ، وقد يردن السوء بامرأته .

وهذا أبو الزوج يأخذ مشط الفتاة ، فيتلو عليه سورة من القرآن أثناء ساعة طويلة ، ثم يرده إلى شعرها ليصد عنها العفاريت وشياطين السوء .

وأمثال هـذه المناظر كثيرة ، يمتلئ بها الكتاب . وتستطيع أن تنظر من خلال الأستار ، أو من ثقب القفل أو من ثنايا النوافذ ، لترى هؤلاء النسوة ، وقد جلسن يتحدثن ويشربن القهوة ، ويلغطن بالسخف والخرافات ، حول موقد يحرق فيه الطيب ، وهن يدنون منه ، فيطيبن ثيابهن من أعلى ومن أسفل ، ليتلقين أزواجهن بالطيب حين يأوى الأزواج إلى المضاجع إذا تقدم الليل . ومما لا شك فيه أن الكاتبة الأديبة قد ظفرت فى كتابها الفرنسى بحرية فنية لا يظفر بها أمثالنا نحن المصريين من الكتاب البائسين ، الذين يكتبون باللغة العربية ، فيرعون الذوق المصرى والعرف المصرى ، ويسرون أكثر مما يظهرون ، ويخفون أكثر مما يعلنون ، وهنا تعرض مسألة لا بأس بأن يقف عندها الأدباء ، وهى مسألة الحرية الفنية ، التى لا يظفر منها الكاتب العربى إلا بأيسر حظ وأقله ، على حين يبلغ منها الكاتب الأجنبى أقصى ما يريد ، وأكثر مما يريد .

ولو أن السيدة قوت القلوب كتبت كتابها هذا باللغة العربية ، لاضطرت إلى أن تلغى منه الشىء الكثير ، مراعاة للذوق المصرى والعرف المصرى . فلمن كتبت هـذا الكتاب ؟ كتبته لنفسها أولا ، كما يصنع كل أديب حين يسجل خواطره وآراءه ، وكتبته للقراء الأجانب بعد ذلك فى أكبر الظن . ولست أدرى أراضية هى عن أثرها الأدبى ، ولكنى أعلم أن الأجانب الذين قرءوه راضون عنه كل الرضى ، يرون فيه لذة فنية ، ويرون فيه لذة علم بما لم يكونوا يعلمون ، ويرون فيه هذه اللذة التى نحسها حين ينبئنا منبئ بالأشياء الغريبة الطريفة النادرة ، فنود لو نعلم

أكثر مما علمنا ، ونسمع أكثر مما سمعنا ، ونرى أكثر مما رأينا .

وقد تسألنى عن رأيى أنا فى الكتاب : أراض أنا عنه أم ضيق به ؟ فأما من الناحية الفنية الخالصة ، فأنا راض عن الكتاب ، مثن عليه ، آسف لأنه لم يكتب باللغة العربية ، حريص على أن يترجم إلى هذه اللغة . وأما من الناحية المصرية الخالصة فقد أتحفظ فى هذا الرضى بعض الشىء ، لأن الأجانب يسجلون علينا ما سجلته السيدة قوت القلوب ، وأكثر مما سجلته ، فلندع لهم ذلك . وفى حياة المصريين ما نستطيع أن نقدمه إلى الأجانب ، فنسرهم ونرضيهم ، ولا نضحكهم . ولست أرى بأساً بأن يكتب هذا الكتاب فى لغتنا العربية ، لنظهر على نقائصنا فنصلحها ، وعلى محاسننا فنتزيد منها . ولست أرى بأساً بأن يترجم هذا الكتاب عن لغتنا إلى اللغات الأجنبية ، فيعرف الأجانب أننا لا نشفق من تسجيل عيوبنا والجد فى إصلاحها . فأما أن نصور هذه النقائص مباشرة فى لغة أجنبية ، لا لنظهر نحن عليها ، بل ليظهر عليها غيرنا ، فهذا الذى أقف منه موقف التحفظ ، ومن المحقق أنى لن أقدم عليه . وليقل الناس إنى ضعيف ، فإنى أوثر مثل هذا الضعف .

على أن فى الكتاب قصصاً أخرى تؤثر وتعجب بغير هذه النقائص والعيوب ، بما تضطرب به نفس الكاتبة من عواطف الخير والرحمة والإشفاق . والقصة الأخيرة فى الكتاب جميلة حقاً ، لأنها تصور تصويراً مؤثراً ساذجاً الانحدار من العزة إلى الذلة ، ومن السعادة إلى الشقاء ، ومن نعيم الثروة إلى جحيم الفقر والإعدام . وهل تأذن لى الكاتبة فى أن ألاحظ ، فى رفق ، أن الذين يقرءون كتابها قد يخدعون عنها أحياناً ، وقد يظنونها فرنسية ، تكتب عن المصريين ، قد علمت من أمرهم كثيراً جداً ، وجهلت منه مع ذلك ما لا ينبغى أن يجهل ، فشيخ الاسلام مثلا عندها هو الرئيس الأعلى للمؤمنين ، صفحة ٦٢ ، وهو عند المصريين شيخ الجامع الأزهر ليس غير . والرئيس الأعلى للمؤمنين هو الخليفة إن وجد . ومحمد وأحمد اسمان لابنين من أبناء النبى صلعم ، وهما عند المسلمين اسمان من أسماء النبى نفسه . وليس من أبناء النبى من سمى بهذا الإسم أو ذاك .

ومهما يكن من شىء ، فإن الذى دفع السيدة قوت القلوب إلى أن تكتب كتابها القيم الجميل باللغة الفرنسية ، هو الذى خيل إليها أن شيخ الإسلام هو الرئيس الأعلى للمؤمنين ، وأن محمداً وأحمد هما من أسماء أبناء النبى .

أنعذرها فى ذلك أم نعتب عليها ، أم نعدل عن العذر والعتب إلى الثناء على ما فى كتابها من جمال فنى يلذ ويمتع ويمكن القارىء من أن ينفق فى قراءته وقتاً مريحاً حقا ؟

طه حسين

أحاديث جدتى

بقلم الآنسة سهير القلماوى

تتحدث فيه عن العصر الذى سبق الاحتلال الانجليزى حديثاً مشوقاً صورت فيه الأسرة المصرية تصويراً دقيقاً .

كتب مقدمة هذا الكتاب الدكتور طه حسين بك فى ١٥ صفحة . والكتاب مطبوع طبعاً متقناً على ورق صقيل فى ١١٩ صفحة .

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ٩ شارع الكرداسى بعابدين .

ذكرى الأربعـــين

لوفاة فقيد الشعر العربى الأستاذ محمد الهراوى رحمه الله

قد فوجئت « الثقافة » كما فوجئت أسرة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بنبأ وفاة عضوها العزيز الأستاذ محمد الهراوى ، رحمه الله ، فلم تستطع أن تنفس على صفحاتها عن حزنها ، ولا أن تبدى فيها ما أحست من فجيعتها .

لقد مضى أربعون يوماً خلا فيها مكانه من مجالس لجنة التأليف ، وكان من قبل يملأه بشراً وفضلا ، ويفيض منه على حلقة الأصدقاء وفاء وحباً ، فقد كان كبير القلب ، خالص الصدر ، نقى الطبع ، حلو العشرة . كان رحمه الله فى حياته يسير على سجية الشاعر المطبوع ، من رقة الحاشية ولين الجانب ، وقوة العاطفة ، وسمو الأمنية .

أما مكانه فى الأدب فلا تتسع له هذه السطور القليلة ، فلقد كان من شـعراء مصر الذين تتطلع إليهم الأنظار فى كل موقف ، وتصيخ إليهم الآذان فى كل موطن . لا تكاد حادثة من الحوادث الجلىّ تمر من غير أن تكون لصوته فيها رنة عذبة ، ولا تكاد تثور مسألة إلا كان له فيها قولة مشجية .

وكان شعره مطبوعاً لا تكلف فيه ، سلس الأسلوب ، حلو الديباجة ، تمازجه صراحة البدوى ، ويخالطه تواضع الصوفى . لا يشوب شعره ادّعاء ولا يتخلله زهو ، ولا يمتزج به رياء .

وقد أدى خدمة جليلة للتربية الأدبية فى مصر بتأليفه تلك المجموعة الفذّة من شعر الأطفال الذى لا يزال مادة لغنائهم ومورداً عذباً لسمرهم . وهى مجموعة لا يستطيع مثلها إلا مثله ، ممن صفا قلبه ورقت نفسه وامتلأ بحب الانسانية والاخلاص لها .

فلئن خلا مكانه من حلقة إخوانه فان ذكراه لن تزال فى قلوبهم ماثلة وفضائله بينهم خالدة ، ولئن كان الصديق لا يملك فى المواساة إلا دمعه فان الشعر مدين له بأعظم دين ، فلن تخلو صحف الأدب المصرى من ذكراه ، ولن تنسى النهضة الشعرية أن تسجل اسمه بين بُناتها الذين قضوا أيامهم يرددون أناشيد أمانيها .

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمتــه ما شاء أن يترحما

كتاب السلوك

لمعرفة دول الملوك ، للمقريزى

أتمت اللجنة طبع القسم الثالث من الجزء الأول من كتاب « السلوك » للمقريزى وبهذا ينتهى الجزء الأول ، وقد قام على نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة الأستاذ المساعد بكلية الآداب .

وهذا القسم الثالث مكمل من عدة نواح للقسمين الأول والثانى إذ صدّره الناشر بمقدمة تحليلية للجزء الأول كله ، وذيله بسبعة عشر ملحقا تفسيريا من مخطوطات أخرى ، كما اتبع ذلك بكشاف فى خمسين ومائة صفحة .

ويطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الشهيرة ، وثمنه خمسة وعشرون قرشا صاغا عدا أجرة البريد

امتحـــــان ...

للأستاذ أحمد أمين

قام فى نفسى أن أجمع ثلاثة من أولادى فى مراحل التعليم المختلفة، وألقى عليهم سؤالا طريفا، لأتبين عقليتهم وأخبر تفكيرهم، فسألتهم على التوالى:

— لماذا تذهب إلى المدرسة ؟

فأما أصغرهم، وهو فى « روضة الأطفال » فقال:

— أذهب إلى المدرسة لأتعلم لغة عربية، وحسابا، وخطا، وأشغالا.

وأما الذى فى السنة الرابعة الابتدائية فقال:

— أتعلم لآخذ الشهادة هذا العام وأدخل المدرسة الثانوية.

وأما كبيرهم وهو فى مدرسة الهندسة فقال:

— لأتمم دراستى، وأحصل على الشهادة، وأوظف.

وأردتُ أن أعمل عمل المدرس، فأزن الاجابة وأعطى درجات عليها، فرأيت أنى لو دققتُ فى التصحيح لأسقطتهم جميعا، فما شىء من ذلك يستحق أن يكون إجابة صحيحة، ولا شبه صحيحة.

عيب هذه الاجابات أنها تركز أغراض التعليم فى ثلاثة أشياء: حشو الذهن بالمعلومات، ونيل الشهادة، والحصول على الوظيفة. وليس شىء من هذا هو غرض المدرسة الحقيقى فى نظرى.

أظهرت عدم الرضا لأبنائى عن إجابتهم. فقال أكبرهم: إذن نغير الموقف، فأكون أنا السائل وأنت المجيب.

إن على سائلنا أن نسألَهْ والعبءُ لاتعرفُه أوتحملَه

قلت: لك ذلك.

إن أهم وظيفة للمدرسة أنها تعلمنا كيف ننتفع بتراث السابقين، فمنذ كان الانسان على ظهر الأرض وهو يجرب ويتعلم، ويتبين الخطأ والصواب، ويصل إلى نتائج بعضها يبقى على ممر الزمان لصحته، وبعضها يذهب مع الريح لفساده. وقد قام بهذه التجارب ملايين الناس، واشتغلت بتحقيقها ملايين العقول، وضحيت فى سبيل فحصها وامتحانها ملايين الأنفس. وكان العالم كله فى هذه الأزمان كلها عبارة عن « معمل » تشتغل فيه كل هذه الملايين على التعاقب، « فيحللون » و « يبحثون »، ويرصدون نتائج بحثهم. وكثيراً ما كانوا يفشلون فى تجاربهم وتحليلهم، فيبدءون العمل من جديد بفرْض جديد، حتى يصلوا إلى النتائج الصغيرة بعد العناء الكبير. وهم لا يصلون إلى هذه النتائج إلا على جسور من رءوس الضحايا.

وقد قُدِّمت هذه القضايا التى أنتجتها الأجيال السابقة للأجيال الحاضرة فى شىء اسمه « كتاب ». ولو أخذنا أى كتاب مدرسى، مهما صغر حجمه، فى أى موضوع من موضوعات العلم والأدب، سواء كان طبيعة أو كيمياء أو بلاغة، أو نحوا وصرفا، أو هندسة، أو جغرافيا؛ وأردنا أن نعرف تاريخ كل قضية فيه، لعجزنا عن عدد الذين ذهبوا ضحيتها فى البحث والتجربة، وإعمال الذهن، وسهر الليالى، وتكبد الأسفار، ومعاناة التحقيق. فما أكثر الضحايا الذين ذهبوا حتى وصلنا إلى أن « الأجسام تتمدد بالحرارة »! وما أكثر من ذهبوا فى سبيل تدوين أحكام « الفاعل ونائب الفاعل »! وما أكثر عدد العقول

والنفوس التى ذهبت فى سبيل تحقيق أن « الأرض تدور حول الشمس » ! وهكذا .

ولعل النظر إلى الـكتب على ضوء هذا البيان يفيدك — يا بنى — فى تعرف أى الـكتب المدرسية صالحة للبقاء وأيها صالحة للإعدام ، فما لم يحمل إلينا من الـكتب تجارب الأقدمين ويُنِرْ لنا السبل فى حياتنا الحاضرة لا يستحق البقاء ؛ بل هذا أيضاً يعينك على أن تحكم على منهاج الـكتب ومبلغ رقيهـا فى فن التأليف ، فما لم تبعث فيك روح النهوض واستخدام ما فيها فى هذه الحياة واستحثاثك على إصـلاح حياتك وحياة غيرك وتقديمك الحياة خطوة عمن سبقك فلا قيمة لها .

إن أكبر فارق بين الإنسان والحيوان — يابنى — أن الحيوان لايستفيد جيله الحاضر من تجارب أجياله السابقة ، فالنحل يعمل الآن ما كان يعمله أيام آدم ، لم يتقـدم فى نوع معيشته ولا فى قرص عسله ولا فى بناء مسكنه ، وكذلك شأن كل حيوان ؛ ولـكن كم من الفروق بين عيشة الإنسان الأول والإنسان الآخر والإنسان فى الـكهوف والإنسان فى القصور ! . وعلى الجملة فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعيش كل جيل منه على أكتاف من سبقه . ويبنى كل جيل طابقاً جديداً فى قصر الانسانية .

فالمدرسة تعلمنا تاريخ التجارب الإنسانية السابقة ، وتعلمنا كيف نبنى عليها طابقنا الجديد . فمـالم نبن بناء جديداً لم نستحق اسم الإنسانية .

ومدرسة تفضل مدرسة بمقدار ما تلقى من هذا الضوء وتبعث من هذا الروح ؛ فالمدرسة التى تعلمك أنك تذهب إليها لتنجح فى الامتحان فقط ، أو تأخذ الشهادة فقط ، أو توظف فقط ، لا تستحق إلا أن تغلق ، لأنها تبعث أفـكاراً ميتة وتوحى آراء جامدة . وليس يستحق منها البقاء إلا مدرسة تعـلّم كيف كان الناس يحيون ، وكيف يحيون الآن ، وكيف ينبغى أن يحيوا فى المستقبل . ثم هى تغرس فى نفوس التلاميذ من أول روضة الأطفال هذا المبدأ بالوسائل التى تختلف بساطة وتركباً حسب استعداد الطفل ، حتى إذا سئل كل تلميذ : لِمَ يذهب إلى المدرسة ؟ أجاب أنه يذهب إليها ليتعـلم كيف يكون إنساناً يستحق اسم الإنسانيـة . ومهما اختلفت الإجابة حسب السن والعقلية ، فلن تعدو هذا المعنى الأساسى .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نلخص مناهج الدراسة بأنها « تاريخ الإنسانية كلها أو جزء منهـا فى نواحيها المختلفة أو ناحية منها حسب استعداد الطالب لتناولها » . وهذا يشمل كل فرع من فروع العلم ، فـكل علم فى الواقع هو تاريخ الإنسانية فى ناحيـة من نواحيها أو جزء من أجزائها ، حتى النحو والصرف هو تاريخ الإنسانية فى لسانها ، فى جزء من أجزائها .

وفائدة هذا النظر أنه يطلعك على موضع الفساد فى برامجنا ؛ فإذا درسنا فى التاريخ تاريخ الملوك وحدهم وأهملنا جوانب الشعب كان تاريخاً ناقصاً مبتوراً ، لأنه أطلعك على جانب صغير من جوانب الإنسانية ، حيث كان فى إمكانك توسيع هذه النواحى ؛ وإذا كان درس البلاغة لا يمكّنك من فهم بلاغة الأقدمين ، ولا يعينك على أن تكون بليغاً فى حاضرك فلا قيمة له ، لأنه ليس من تاريخ الإنسانية فى شىء إلا أن يكون تاريخاً للسخف فيهـا ، وليس موضع هذا المدرسة . وتستطيع أن تقول هذا فى كل علم ، وكل فرع من فروع العلم .

كذلك إذا كان منهج فى الدراسة يطلعك على ناحية من نواحى الإنسانية فى عام ، ومنهج يطلعك على الناحية نفسها فى عامين ، فالأول أفضل بداهة . ففضل منهج على منهج فى أنه يكشف لك جانب الإنسانية الذى تريده من أقرب طريق .

ومهمة واضع البرامج ومظهر براعته فى أن يعرف أى نواحى الإنسانية أهم للطلبة فى بيئتهم الخاصة ، وأى منهج

من مناهج التعليم يوصل إلى الغرض فى أقل زمن ممكن .

* * *

هذا — يابنى — جانب واحد من جانبى الإجابة على السؤال : « لماذا تذهب إلى المدرسة ؟ » وهو الجانب العقلى للموضوع ، وهناك جانب آخر لايقل عن هـذا شأنا وهو الجانب النفسى .

إنك تذهب إلى المدرسة لِتُربِّى نفسُك حتى تتحقق سعادتك ويسعد بك غيرك ، فإنك تحمل فى داخلك أنواعا من القوى ، من شهوات وإرادة وعقـــل . ووظيفـة المدرسـة الصالحـة أن تعلمك كيف تخضع شهواتك لعقلك ، وأن تقوى إرادتك لتكون القوة التنفيذية لحكم العقل على الرغبات والغرائز والمشاعر . إن المدرسة تكوّن فى داخلها مثلا أعلى من مجتمع صغير ليتكون من نفسه فيما بعد مثل أعلى للمجتمع الكبير . إنها تعلّم كيف يسـعد الفرد بالتعاون مع رفقائه ليتعلم بعدُ كيف يسعد بالتعاون مع أفراد أمته . إنها تعلمك من أنت فى نفسك ، ومن أنت فى مدرستك لتعرف بعدُ من أنت فى قومك .

لهذين الغرضين تذهب إلى المدرسة .

* * *

لشد ما أخشى أن يغار رجال التعليم فى مصر على مدارسهم فيستملوا الإجابة منها ويطبقوا ورقة الامتحان عليها ، فيعطوا إجابتى « صفراً » .

أحمد أمين

أثر المـــرأة
فى أدبائنا المعاصرين

أستأذن قبل كل شىء الدكتور طه حسين بك فى استعارة بعض عنوانه المعروف ، ولن أجور بعد ذلك على اختصاصه ؛ فان كل ما يعنينى اليوم من أمر أدبائنا المعاصرين هو ذلك الجانب المجهول المستور الذى لا يحبون أن يكشفوا عنه للناس . إن أدباءنا يعلمون — بحكم ثقافتهم واطلاعهم فى تاريخ حياة العظماء — أن المرأة كانت فى أكثر الأحوال ذات أثر بارز ، لا فى تلوين حياتهم وحدها ، بل فى توجيه أعمالهم وتصريف أقدارهم ؛ فهنالك ملكة سبأ فى حياة سليمان ، وكليوباترا عند قيصر وأنطوان ، وجوزفين مع نابليون ، وهنريت فى عمل رينان ، وملتون وابنته ، وكارل ماركس وزوجته ، وابراهام لنكولن وقرينته . بل عندنا خديجة والنبى محمد ومؤازرتها إياه فى مبدأ جهاده ، ثم أثر بقية النساء فى حياته ، فلولاهن ما نزلت بعض آيات القرآن . ذاك أثر المرأة فى الأنبياء والعظماء . أما أثرها فى الشعراء والأدباء ، ورجال الفن والفكر ، فهو يكاد يعد فى حكم الناموس ؛ فما من شاعر أو أديب أو فنان عاش كل حياته وأنتج كل عمله ، بعيداً عن امرأة أو شبح امرأة أو ذكرى امرأة . إن عبارة « فتش عن المرأة » ينبغى أن ترسخ فى ذهن كل مؤرخ يتصدى لدرس شاعر أو أديب أو فنان . وهذا ما حدث بالفعل ، ويحدث كل يوم فى تلك الكتب التى تظهر بين آن وآن ، حاوية لتراجم هؤلاء الرجال ، باحثة ظروف تآليفهم ومؤثرات أعمالهم .

ترى هل فى مقدور مؤرخ أن يدرس أثر المرأة فى أدبائنا المعاصرين ؟

آه . الويل للمؤرخ الذى يفعل ذلك ! إنه لن يستطيع فى سهولة أن ينفذ إلى حياة أدبائنا الخاصة . فهم مازالوا فى حالة « حجاب » ، وقد وضعوا على منابع وحيهم ومصادر مشاعرهم الخلاقة ، نقاباً كثيفاً كنقاب المرأة المصرية قبل السفور . إنهم مازالوا يحمرّون حياء دونه حياء العذراء كلما لمس أحد الباحثين ذلك النقاب الذى يخفى عواطفهم الدفينة ، أو ذكرى خفقات قلوبهم القديمة . ولم يؤمنوا بعد بأن طبيعة عملهم تقتضيهم أن يصدقوا الناس والتاريخ عما فى نفوسهم من مشاعر خفية . فما الفنان إلا رجل عرض قلبه ونفسه للتشريح العام أمام البشرية والزمن . فنحن إذن فى موقف غريب : إن سفور المرأة فى مصر قد سبق سفور الأديب . من أجل هـذا نرى أن جانباً كبيراً من أدبنا الحديث ما زال أدباً « حبيساً » تفوح منه رائحة الحجرة المغلقة . أدب صناعة ، وأدب « علب محفوظة » من التعبيرات والأساليب والدراسات المستخرجة من خزائن الأقدمين . أما أدب الهواء الطلق ، أدب

التعبير عما فى أعماق النفس فى حرية وأمانة وإخلاص ، أدب الحياة النابضة بتفاصيل المشاعر الآدمية . هـذا الأدب الخارج من القلب ليخاطب كل قلب على وجه البسيطة . هذا الأدب العالمى الذى يؤثر فى نفس كل أمة وكل جنس وكل آدمى ، لأنه نبع صافياً خالصاً حاراً من قلب آدمى . هذا الأدب حظنا منه قليل ، لأن حظنا من الصراحة والصدق قليل .

* * *

ومع ذلك فان هذا القليل يكفينا فى الوقت الحاضر ، على شرط أن نتعهده بالعناية وحسن الالتفات . إن من بين أدبائنا المعاصرين من خرج سافراً من الحجرة المغلقة ، ليكشف للناس عن بعض مشاعره الخاصة فى شجاعة وصراحة . فهذا « طه حسين » المقدام على عادته قد أعلن للناس فى كتابه « قصص تمثيلى » ذلك الاهداء الجميل : « إلى زوجى التى جعل الله لى منها نورا بعد ظلمة وأنسا بعد وحشة ونعمة بعد بؤس أرفع هذا الكتاب » . ثم تلك الصفحة الرائعة التى صدر بها كتابه « مع المتنبى » :

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون...» صدق الله أيتها الزوج الكريمة وتمت كلمته ، ففى ظل هذه المودة درست هذا الشاعر العظيم ، وفى ذرى هذه الرحمة أمليت هذه الفصول . وإن قلبى ليملؤه البر ، ويغمره الحنان حين أذكر ما كنت تبدئين وتعيدين فيه ، أثناء ذلك من حث لى على الراحة ، ورغبة إلىّ فى التروض ، وإلحاح علىّ فى الاستمتاع بنعيم الحياة ، وجمال الطبيعة فى جبال الألب ، وما كنت ألقى به عطفك من إباء وإعراض ، وما كان يثور فى نفسك من غضب مصدره الرحمة والاشفاق . وانى لأعلم أنى كنت فى ذلك قاسياً جافياً ، ولكنى أعلم أنى مدين لهذه الجفوة ، وتلك القسوة بهذا الكتاب ، فأذنى لى فى أن أقدمه إليك ، لعله ينسيك من ذلك ما لا تزالين تذكرين » .

بذلك يكشف طه حسين للناس عامة ، ولمؤرخيه خاصة ، منبعاً صافياً من منابع نبوغه ، ومصدرا من مصادر إلهامه . بل إنى أعتقد أن أثر زوجه الفاضلة قد جاوز دائرة هذه الحياة الفردية إلى محيط الأدب العربى الحديث فى كثير من نواحيه . فهى فضلا عن تمهيدها طريق اللقاء بين أفكار الغرب وأفكار الشرق فى صالونها الأسبوعى المشهور ، تعد إلى حد كبير صاحبة الفضل فى ظهور كتب لها منزلتها فى التراث الأدبى العربى الحديث .

وإنى لفخور إذ أتاحت لى الظروف يوما أن أسجل فى كتاب لطه حسين كان لى حظ المشاركة اليسيرة فيه هذا التقديم : «إلى التى كانت تشيع ذهابنا إلى القصر المسحور ، وتتلقى عودتنا منه بنظرات حائرة ، وبسمات ساخرة ، ولكن فيها مع ذلك الرحمة والاشفاق والتشجيع ، لأنها تعرف كيف تحيى زهرات الأدب ، وتبعث نشاط الادباء » وتلك حقيقة واقعة . إن هذه السيدة قد خلقت لتؤدى رسالة أدبية جليلة .

إن فى حديثها لروحا يبعث دائما كل نشاط عقلى .. إنى ما عدت مرة من صالونها الأدبى ، إلا شعرت فى نفسى برغبة فى إخراج كتاب جديد . تلك سيدة سوف ينصفها تاريخ آدابنا فى يوم من الأيام .

هـذه حالة ظاهرة لعين الباحث . ولكن هنالك حالات مستورة لم ينوه عنها أصحابها إلا تلميحاً ، فعلينا إذن أن نستخرج مكنونها من بين السطور . فذلك « هيكل » فى قصة « زينب » قد وصف امرأة ؛ لكنه لم يخبرنا أهى امرأة حقيقية رآها فى الواقع يوما فألهمته هذه القصة ، أم أن الأمر كله من صنع الخيال ؟ على أن « هيكل » فيما أذكر قد تحدث فى موضوع آخر عن سيدة أوربية قابلها فى بعض أسفاره بالخارج ، حدثته كثيرا وحدثها فى شئون الأدب ، فما غادرته حتى استقر فى نفسه العزم على كتابة القصة . إنه إذن قد لقى فى حياته هو أيضا امرأة أثرت فى عمله ووجهته بعض التوجيه .

ثم يأتى « العقاد » بقصته «سارة» فيضع تحت أنظارنا صورة امرأة لا شك عندنا فى أنها حقيقية ، وأنه قد التقى بها وجها لوجه ، وأنه انتفع بها كثيرا فى دراسته لتفاصيل خلق المرأة وطباعها . وأنها قد أثرت فى مجرى حياته بعض التأثير ،و عدلت أو أضافت إلى علمه بالحياة الشىء الكثير . ووجه يقينى بكل هذا أن العقاد كاتب صادق ، قليل الالتجاء إلى الخيال والاختراع . وهو على الرغم من ابتعاده عن الكلام فى شئون نفسه على نحو مباشر ، فاننا نستطيع أن نعرف من مجرد مقال له ماذا أكل أمس وماذا شرب وماذا قرأ ، وماذا يحب من ألوان اللهو ، وماذا يستظرف من أنواع الحيوان .

إن الصدق هبة « العقاد » ، كما أن الكذب هبة « المازنى » ، وهنا لا أجد أعسر علىّ من البحث عن أثر المرأة فى حياة المازنى . إن المازنى أكثر الكتاب تصويراً لنفسه ولحياته وبيته ، ومع ذلك فالويل لمن يؤرخ له . إن قدرة المازنى فى الخيال والاختراع ، واختلاط حقه بباطله قد أسدل حجاباً كثيفاً على وجهه الحقيق . فأنا فى الحقيقة عاجز عن أن أستخلص من بين رواياته الكثيرة اللذيذة التى تعج بالنساء المدللات ، والأوانس الرشيقات ، امرأة واحدة أستطيع أن أقول إنها كانت صاحبة الشأن الأول فى حياته . على أن الذى لا شك فيه عندى ولا نزاع أن هذه المرأة موجودة بالفعل ، ولولاها ما استطاع المازنى أن يكتب قصصا .

* * *

هنالك بعد ذلك حالة أخيرة لأدباء أثرت فى تكوين ثقافتهم نساء فضليات . ومع ذلك لم يجر على أقلامهم وصف مسهب لامرأة . من بين هؤلاء « مصطفى عبد الرازق » . إنى موقن بأن هذا القلم الذى يسيل رقة وعذوبة لا يمكن أن ينبع وحيه من صحراء الكتب الصفراء وحدها . ومن بين هؤلاء أيضاً « أحمد أمين » وقصته عجيبة ! فإنى منذ وقت غير بعيد أتأمل أمره وأسأل نفسى : كيف استطاع هذا الباحث الجاد فى تاريخ الأدب والمؤرخ الجاف للعقلية الإسلامية أن يكون أديباً ذا أسلوب مضىء كضحى اليوم الصحو الجميل ، وأن تنم كتاباته أحياناً عن فهم للقلب والعواطف ، مع اتساع أفق وسلامة ذوق ؟ وخامرنى شك فى طبيعة المؤثرات التى طرأت على حياته الذهنية والنفسية . فتحريت ، فانكشف الأمر لى عن حقيقة ستدهش قراءه كما أدهشتنى ! نعم . هو أيضا قد أثرت فى حياته امرأة ، استغفر الله ، بل امرأتان . هما سيدتان انجليزيتان . لن أقص الظروف التى التقى فيها بهما . فالذى يعنينى هنا الآن النتائج التى خرج بها الأديب من هذا اللقاء . لقد أثرت إحداهما فى ذهنه وتفكيره بثقافتها الواسعة ، وأثرت الثانية فى قلبه ومشاعره بجمالها ونبلها . وغادرتاه منذ أمد بعد أن تركتا وصنعتا « عقلا وقلبا » يطلق عليهما الناس اليوم اسم : « أحمد أمين» .

فأدباؤنا المعاصرون لم يشذوا إذن عن الناموس ، فهم أيضاً يدينون للمرأة بما دان به كل شاعر وفنان .

* * *

وبعد ، فأرجو ألا يدهش القارئ لصدور هذا المقال من «عدو المرأة» . إن روح الانصاف فى دمى ، فقد نشأت فى بيئة القضاء ، وكنت أنا نفسى من رجال القضاء قبل أن أخصص حياتى نهائيا للقلم . على أنى أحب أن أسترعى النظر إلى ظاهرة جديرة بالتفكير .. إن القارئ قد لحظ من غير شك أن المرأة التى أثرت فى عمل أدبائنا المعاصرين هى فى أغلب الأحوال امرأة أوربية : فرنسية أو انجليزية أو إسرائيلية أجنبية . ولعله يتساءل :

— أين المرأة المصرية ؟ أتراها مشغولة حتى الآن بصنع « التواليت » وقيادة السيارات ولعب الورق فى الحفلات ، بدلا من صنع العقول ، وقيادة القلوب ، واللعب بمصائر الرجال وأقدار المشاهير ؟ ؟

إن روح الانصاف تمنعنى من الاسراع بالجواب قبل بحث هذا الموضوع .

توفيق الحكيم

الجاحظ والســـــياسة

للأستاذ سعيد الأفغانى

لا تكون فى الدنيا دولة جديدة خلقتها القوة وأيدها السيف ، إلا صانعها الرأى العام وألّـهها ، وطلب لها كل خير ، مبالغة فى كسب مرضاتها ، وحفظا لدمه ، وإبقاء على نفسه .

وأحْرِ بهذه المصانعة أن تكون أبعد مدى ، حين يكون أمر الدولة إلى زعيم واحد تسلّـط بهيبته وبأسه .

هذه حال الناس فى القرن الأول لمنشأ الدولة العباسية ، حكومة جديدة سندتها سواعد الفرس الأشداء ، عصبية على الدولة البـائدة فيما أظهروا ، وعلى العرب عامة فيما هو الواقع . فمن المعقول ألا يرتفع فى ذلك الجو الرهيب ، صوت بميل لا يرضاه أولو الأمر ، أو دعوة إلى نزعة غير نزعتهم .

أتت الدولة العباسية ، والمسلمون أهواؤهم السياسية شتى : فمن عرب خلّـص ساءهم سطوة هـذه الأعاجم ، وقبضها على أعنة الحـكم ، فحنُّـوا إلى عزتهم وعلو كلمتهم ، خالصة أيام الأمويين ، الذين عقد الاجماع على خلوص صبغتهم الدولية . وأنها عربية محضة ، لم يجعلوا لجنس آخر سبيلا إلى المداخلة والاستمتاع بشىء من الحكم ، حرموا ذلك غير العرب حتى فى الأحلام بشهادة الجاحظ نفسه . ومن فُرس وأتراك وموال ، هواهم على العرب مؤتلف ، شدوا أركان هذه الدولة لا حبا وهياما بالعباس وأولاده ، ولا بعلى وسلالته ، بل وسيلة إلى أمر أعدوا له العـدة ، وهو اسـترجاع ما فقدوا من مكانة وحكم ، وكلهم إما قائد أو دهقان أو رجل خطير .

وهناك طائفـة ثالثة نستطيع أن نقول إنها ابتعدت عن العصبية الجنسية العمياء ، وأثر فى نفوسها الدين ، فعزفت عن مظالم الأمويين التى يقيمونها مواسم بين الحين والحين ، ضحاياها المتطلعون إلى الحـكم من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم . هذه الطائفة هى التى رأت شيئا من الاستقرار فى عيشها وأهوائها ، وإن لم يخل الأمر من وقائع فى آل البيت ، وكل ما تريده أن يحافظ لها على دينها وأن يحترم شعورها ، ثم هى تؤتى العباسيين ما شاءوا من طاعة ومال ، وهؤلاء هم سواد الناس يومئذ .

هذا إلى أحزاب غير هؤلاء وأولئك ، جمعت كل زمرة منهم نحل وأهواء ، نعد بينهم شيعة العـلويين المخلصين ، الذين شروا أنفسهم فى سبيل دعوة آل البيت ، وجلّـة هؤلاء من الخواص والأشراف .

من كل ما تقدم نستطيع أن نعرف الفرَق التى كانت تخشاها دولة بنى العباس أول أمرها ، ولاشك فى أن أشدها إخافة لهـا الفرس الذين ما فتئوا يمنون على الدولة خلقهم لها وقيامها بهم . فكان همّ أولى الحزم والبصر من العباسيين القضاء على هذا النفوذ المخيف ، فبطشوا بهذه الأمة بطشتين بئيستين ، مايزال دويهما فى آذان الناس كلما قرأوا التاريخ : أما الأولى فقتل الداعية أبى مسلم الخراسانى ، وكسر قناة الفرس به ، وأما الثانية فالوقيعة فى آل برمك . ولقد ارتاعت قلوب الشعوب لذلك ، فطرحتْ وساوسها وأحلامها منصاعة لبأس الدولة .

والفرقة الثانية التى حسبت لها دولة بنى العباس أشد الحساب ، هى أولاد على وشيعتهم . ونفوذ هؤلاء مختلف عن نفوذ أولئك ، لأنهم ملكوا القلوب بحبهم وجاههم ومكانهم من النبى ، فكان يرى الشعب فيهم أنبياء صغاراً يلتف حولهم ويعلق بهم آماله فى الدين والدنيا . ولم يزل أكابر هذه الشيعة — وأكثرهم ذو بصر محنك وعالم — يزيدون لها هذه الرفعة فى القلوب بمكارمهم ومعاليهم . حتى كان من ذلك كله أن اشتد العباسيون على العلويين شدةً أنست الناس عهد بنى مروان ومظالمهم فى آل البيت .

هـذا عمل آل العباس فيمن خالف هواهم مستنداً إلى قوة مادية أو معنوية : بطش شديد وقضاء عليه مبرم ، أمام شيعته وعلى رءوس الأشهاد . فما هو خطر الجاحظ — وله سقنا كل هذا التمهيد — إذا رأى غير ما يرى أولياؤه ؟ وما هو بالغ من الأثر فى نصر عقيدته السياسية لو جهز بها ؟ لا خطر ولا أثر البتة ، ولئن فعل ليذهبن طعمة السيوف ثم لا يجد من يبكيه . فليسبِّح إذاً بحمد دولتهم وليشد بذكرهم ، وليلتمس وجوه الدفاع عنهم حتى فيما يعتقد فساده .

ليس الجاحظ بالواسع الغنى حتى يجوز أن نرى له التزام الحياد والسكوت على الأقل ، لا يشد أمر العباسيين ولا ينتقض عليهم ، وليس كذلك بالشريف ذى الحسب الرفيع يمتُّ إلى نبى أوخليفة ، كل ما فى الأمر أنه مَولى ، فعليه أن يلزم شأن الموالى .

والحق أن الله آتى الجاحظ عقلاً حصيفاً ونظراً بعيداً ، ونفاذاً إلى أسرار الأمور ، فدان الله فى سره بما اعتقده حقاً ، ثم شايع أصحابه أولياء الأمور ، فمدح منهم مايذمه العربى أشد الذم : إنهم أهملوا العرب واصطنعوا الموالى والفرس والترك والديلم قادة ورؤساء ووزراء . فكان هذا سماً بطيئاً مزدوج الأثر ، استطاعوا أن يشدوا بهم الدولة زمناً يسيراً ، ما لبث أن صاروا بعده عبيداً لمن اصطنعوهم ، فقرضوا هذه الدولة التى كانت كما قال حافظ رحمه الله :

والله ما غالها قدماً وكاد لها
واجتث دَوحتها إلا مواليها
لو أنها فى صميم العُرب قد بقيت
لما نعاها على الأيام ناعيها
يا ليتهم سمعوا ما قاله عُمر
والنفس قد بلغت منه تراقيها :
لا تكثروا من مواليكم فان لهم
مطامعاً بسمات الضعف تخفيها

عرف الجاحظ كل ذلك ، لكنه عوضاً عن أن ينبه إليه ويدل على الضعف فيه ، نافق فأثنى عليه كأنه الحزم عينه ، وراح يشيد بفضل هؤلاء الموالى ويؤلف الرسائل فى فضائلهم ومناقبهم ، تزلفاً إلى الرؤساء والوزراء الذين هم من صميمهم ومادتهم . وهو بطبعه لا يستطيع عزلة عن السياسة والسياسيين ، لأن منهم معاشه . صاحبَ ابنَ الزيات وأهدى إليه كتابه (الحيوان) ، كما أهدى إلى عدوه الوزير من بعده أحمد بن أبى دؤاد كتابه (البيان والتبيين) ، وكما أهدى إلى الفتح بن خاقان رسالة (مناقب الترك وعامة جنـد الخلافة) ، وإلى إبراهيم الصولى كتاب (الزرع والنخل) ... فهو إذاً كان يقوم بعمل الداعية لهؤلاء السادة وجندهم المختلط ، ولهذا يصعب علينا أن نأخذ آراءه السياسية على أنهـا آراء حرة شخصية . بل يفيد أن نلاحظ طبيعة الحكم فى عهده وأنه إلى الاستبداد أقرب . وإذاً نستطيع أن نلمس الملق والدعاية فى كلامه الذى ذهب فيه إلى رد الحكم إلى فرد ، قال :

« وقضية واجبة : أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد يجمع شملهم ويحميهم من عدوهم ، ويمنع قويهم عن ضعيفهم . وقليل لهم نظام خير من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم . . . إلى أن قال : ولو لم يقم الله للناس من